وجبة إفطار

بدت أقدامه ثقيلة مجهدة، تنوء بحمل جسده، الخطوات التي تفصل بينه وبين بيته على مدى بصره، استحالت إلى أميال طويلة، زاغت عيناه وكأنها لمحت ما يدور بخاطره، لقد انتهى مخزونه من الطاقة الداخلية المختزنة، وعليه أن يستخدم الرصيد الاحتياطي غير المنظور أو المعنوي، كما يحلو للكثيرين أن يسموه الإرادة، وعلى الفور اندفعت قدماه في خفة ورشاقة، تلاشت من ذهنه تمامًا واقعة الأمس، تلك المفارقة التي تمددت عبر أفكاره منذ أن غادر البيت صباحًا وعلى امتداد كل ساعات العمل حكاها للزملاء، وتظاهر بأنه يتنبأ بها فأفتعل الابتسامات والضحكات، رغم عواء أمعائه في الداخل ومطارق الوهن والضعف التي تمتد إلى رأسه، وتكاد تصيب بالشلل بقية أطرافه، بادلته الأحلام والرؤى، إلى أن استيقظ فجأة ليجد ابنه وزوجته في سبات عميق، قام يتحسس المصباح أضاءه، وتحرك في اتجاه الدولاب الصغير، في محاولة لإخراج الساعة من جيب

السترة، ولكنه وهو في بداية الطريق سمع صوتًا مجلجلًا «الله أكبر الله أكبر».

استدار وعاد للنوم دونما تفكير، ليتناول كوبًا من الماء يبلل شفتيه ويرتشف ما تيسر، فلم يعد هناك ضرورة لإيقاظ الزوجة، أحاسيس الجوع كانت ضعيفة فأسلمته للنوم السريع، قام ليكتشف بسهولة هذه المرة أنه تأخر عن العمل، فأسرع مهرولًا إليه، كان لابد من تبرير أمام رئيسه وزملائه، فروى قصة الصيام بلا سحور، ربما أضاف الجري إلى متاعبه وإجهاده، تنهد بارتياح وهو يدلف إلى داخل البيت، اتسعت فتحتا أنفه للاختبار، أخرج الهواء ثقيلًا وسريعًا من رئتيه، ليدفع بكمية جديدة من نفس المحاولة، جسدت تقاطيعه كل خيبة الأمل، تجاهل الابتسامة الوديعة التي كست ملامح الزوجة، وركزت نظرة ذات دلالة أقفلت شفتيها على عبارة ترحيب، وجعلها تدرك على الفور فداحة الخطأ الذي وقعت فيه، عندما لم تستيقظ في الوقت المناسب لتعد له طعام السحور وقبل أن تسعفها الكلمات ببادرة الاعتذار كان هو قد بدأ:

ـ أيش صار في الفطور؟

تلعثمت الزوجة واضطربت قبل أن تنطق متسائلة:

ـ وين اللحم والمعدنوس؟

استحالت تقاطيعه إلى حلبة يتصارع فيها الانفعال والسخط والغضب، وجمدت حدقتا عينيه في اتجاه ما وزفر:

ـ ليش ما دزيتي منصور؟

ولم تجب الزوجة وتزايد خوفها، أن زوجها تنتابه نوبة غضب قاسية قد تجعله لا يتردد في عقاب وحيدها (منصور) الذي خرج يلعب شأن أطفال القرية، ولم يعد حتى الآن بعيدًا عن متناول يد الأب، ارتاحت الأم وسرى نوع من الهدوء إلى أعماق نفسها، ودون أن ينتظر الزوج جوابًا اندفع إلى الخارج في طريق واحد، لم تكن الزوجة في حاجة إلى الاستفسار عنه، إنه متجه إلى المجزرة الوحيدة في القرية، مرة وأخرى عادت أقدامه إلى التمرد، قهرت نفسه تمامًا مشاعر التعب والإنهاك.

سنوات عمره تجاذبتها عوامل الخوف والقلق المضني، وعدم الاستقرار حتى غدًا كالعجوز وهو لم يزل في مقتبل العمر، حتى القرية نفسها صارت مملة وكئيبة لم يعد يحس إزاءها بمشاعر الود والحب..! تمنى لو نقلوه منها، رغم أنه يعرف جيدًا، إنه مجرد موظف تعس يمتص الهواء والزمن، ويتناول أجرًا ضئيلًا لا يساعده على حياة المدينة بأعبائها وتكاليفها الباهظة.

اقترب من المجزرة الوحيدة في القرية، إنها مكتظة بالزبائن لا مكان فيها لموضع قدم، انتظر عند الباب على مضض وضيق، في وقار واحترام، مازال ينتظر دوره، الوقت يمضي صبره يكاد أن ينفد، أخذ يدفع من هم أمامه بمنكبيه حتى أصبح في المقدمة، يخاطب التاجر بصوت عالٍ:

ـ يا سيدي الحاج كيلو لحم و....

إلا أنه لم يلتفت غليه، ولم يعره الاهتمام، وأخذ يزن لمن هو خلفه شعر بالغضب: هذا القصاب لماذا لم يلبِ طلباتي؟ وقد بح صوتي، ولما ضاق به القصاب ذرعًا التفت إليه قائلًا:

ـ طول بالك اللي عنده الفلوس قبل.

أحس صالح بالإهانة، وكأن سهمًا قد أصابه لمعت عيناه ببريق الغضب وصرخ في وجهه:

ـ هل أنا أشحت منك؟ إنني أنقدك أجرك كل شهر.

وبادره القصاب قائلًا:

ـ وأنا حر في لحمي انتظر فنحن صيام.

وثارت ثائرة صالح فأرغي وأزبد «هذا البرميل ذو الرأس الهلامية الفارغة والكرش المتدلية أمامه يحرجني على ملأ من البشر، ويرفض طلبي ماذا يظن نفسه؟».

يحس صالح بالإهانة، انتفخت أوداجه، امتدت دائرة السباب بينهما واتسعت كالبالون، امتدت الأيدي لتوقف العراك تفصل بينهما، لكنهما امتدت بعد فوات الأوان، أهل القرية يتساءلون وهم يهرولون، حيث توقفت سيارة الإسعاف، يتساءلون في شغف:

ـ ماذا جرى؟

ـ رمضان كريم صالح (حشش) وضرب صاحب المجزرة بصروف الميزان.

ـ قتله وإلا لا؟

ـ لا أمسكوه قبل أن يقتله.

وفي اليوم التالي خرج أهالي القرية يهرولون ويزحفون نحو السوق كالجراد، فلقد أغلقت المجزرة الوحيدة في الحيطة.